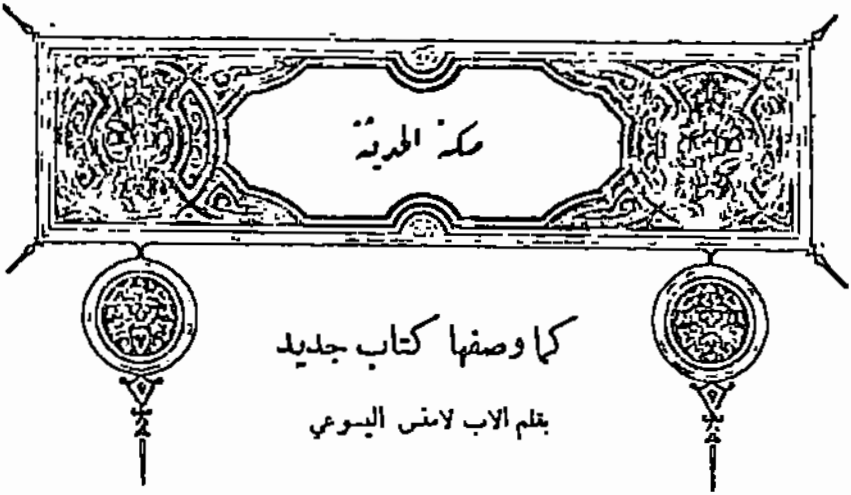

كما وصفها كتاب جديد

بقلم الاب لامنس اليسوعي

الف اللواء ابراهيم رفعت باشا كتاب مرآة الحرمين فوصفه المشرق كانون الاول ١٩٢٨) ووعد بالعودة الى الكلام فيه ، ليتسنّى للقرّاء ان يقدروا الكتاب قدره على ما فيه من ابتكار . ان يكن رجل كفوءا لوضع هذا الكتاب ، فهو بلا مراء اللواء قومندان حرس المحمل المصري في ١٩٠١ ، واميرالحج في ١٩٠٣ و ١٩٠٤ و ١٩٠٨ . فقد استطاع ، بفضل وظيفته والقابه الرسمية ، ان يشاهد ما لا بد من ان يفوت وعي الزوّار والحجّاج من العامّة . ومئات هي الصور التي اتخذها بالآلة الشمسيّة ، وابرزها في كتابه « مرآة الحرمين » ، واضاف اليها رسوماً جغرافية جيدة جدًا . ذلك مما يجعل للكتاب قيمة اثرية غير موجودة غالباً في الكتب العديدة التي سبق فيها اصحابها مؤلفنا الى موضوعه .

فخرَ المؤلف[1] بكونه « شريفاً » وباهى بانه مسلم صادق ، فقام خوّاً بمشاعر الحجّ الاسلامي ، على كثرتها ومشقّاتها . لكن ايمانه لم يعمِ ، فانه من غير ما مجاهر بالمكابرة ومن غير ما يبدي اشارة تجعلك تشكّ في صدق نيّته ، لا يخشى عند سنوح الفرصة من الاحتجاج على التجديدات التي لا تلائم دين الاسلام ، في نظره . ومن احتجاجاته قوله (ص : ٢٢) لمّا نزل من المركب الى جدّة « وفي وسط الجيانة قبر امنا حواء (المكذوب) وطوله نحو ١٥٠

---

١) راجع المجلد الثاني ص : ٣٥٥ . وانك لتجد فيها وفي الصفحات بعدها ترجمة لمؤلف باسهاب مع رسوم تصوّره في متنوّع تطورات حياته العامّة

متراً وعرضه اربعة امتار وارتفاعه متر ، عليه ثلاث قباب على الرأس والسرة والرجلين كما يزعمون » . ولهُ في الصفحة ٣١ حاشية مطوّلة لا بد ان تكون قد راقت محرّر المنار. قال : « مما لا ريب فيه في شريعتنا الاسلامية ان اقامة القباب على القبور محرمة » واعلن (ص : ٤٧٥) « قبر فاطمة مزعوماً » وقبح مراراً اكرام القبور (ص : ٤٨١) وقال:(ص : ٤٦٨) « ان تجويف المحراب سنّة نصرانية ».وشرب من ماء زمزم على اثر القدمين في حجته سنة ١٣١٨هـ. ثم استعذر فيما بعد وقال :

« وكان خليقاً بي ان اتجنب التبرك بالآثار والشرب من مواطئ الاقدام وان ادع هذه البدعة جانباً . . . ولكني كنت في هذا الوقت لما تنضج معلوماتي الدينية في المهج وشاعره ، ولم أكن وقتئذ قام الوقوف على تأثير البدع السيء في الدين ، وقد دعاني الانصاف الى ذكر الواقع ، ودعاني البصر بالدين الى انكار ما حصل » (ص : ٢٤٦)

وبعد ان عرض صورة تاريخية لمسابقات الملوك والامراء في تحلية الكعبة وميزابها وابوابها وتعاليقها بحلى الذهب والفضة قال :

« نرى من الواجب علينا ان ننبّهك الى ان انفاق اموال المسلمين العامة في هذه السبل يأباه الدين لانه من الاسراف المحظور ، وخير لنا ان تنفق هذه الاموال في مصالح المسلمين العامة.

. . . وليس من الدين في شيء ان نخلّل جزءاً من اموال المسلمين عن استثماره وانفاقه فيما يعود بنفع حقيقي على المسلمين . . . فعسى ان يوجه الملوك همهم واموالهم الى المصالح النافع ويأخذوا بانفسهم عما لا يفيد ولا يجدي »

قد يتفكه المؤلفون العرب على حساب البدوي فيجعلونهُ اضحوكةً ، ويشوّهون صورته وقد اقتفى الباشا آثار غيره[1] في ذلك فقال (ص : ٣٥):

«ولا بأس من ان نذكر لك في هذا الموطن ما يصدر من العربان ونسائهم وقت الطواف فان فيه تفكهة :إحرام العربان عبارة عن كشف اذرعهم ورؤوسهم ، وباقي جسدهم ستور وشعرهم منثور غير منتظم واكثرهم طويل الشعر مضفوره اشبه بشعور النساء عندنا ، اما نساؤهم فمحتجبات لا يكاد يبدو منهن شيء .والرجل يقول في طوافه : يا رب البيت اني جيت لا تقول ما جيت اغفر لي ولوالدي وإلا تغفر لي غصباً تغفر لي تراني جيت . يقول ذلك بصوت جهوري مزعج ويسرع في مشيه في الطواف واسعي ويأخذ الرجل يد زوجه او

---

١) اما ابن جبير فهو يحب البدو وخاصة باعراب اليمن (راجع رحلته ص : ١٣٣ — ١٣٦)

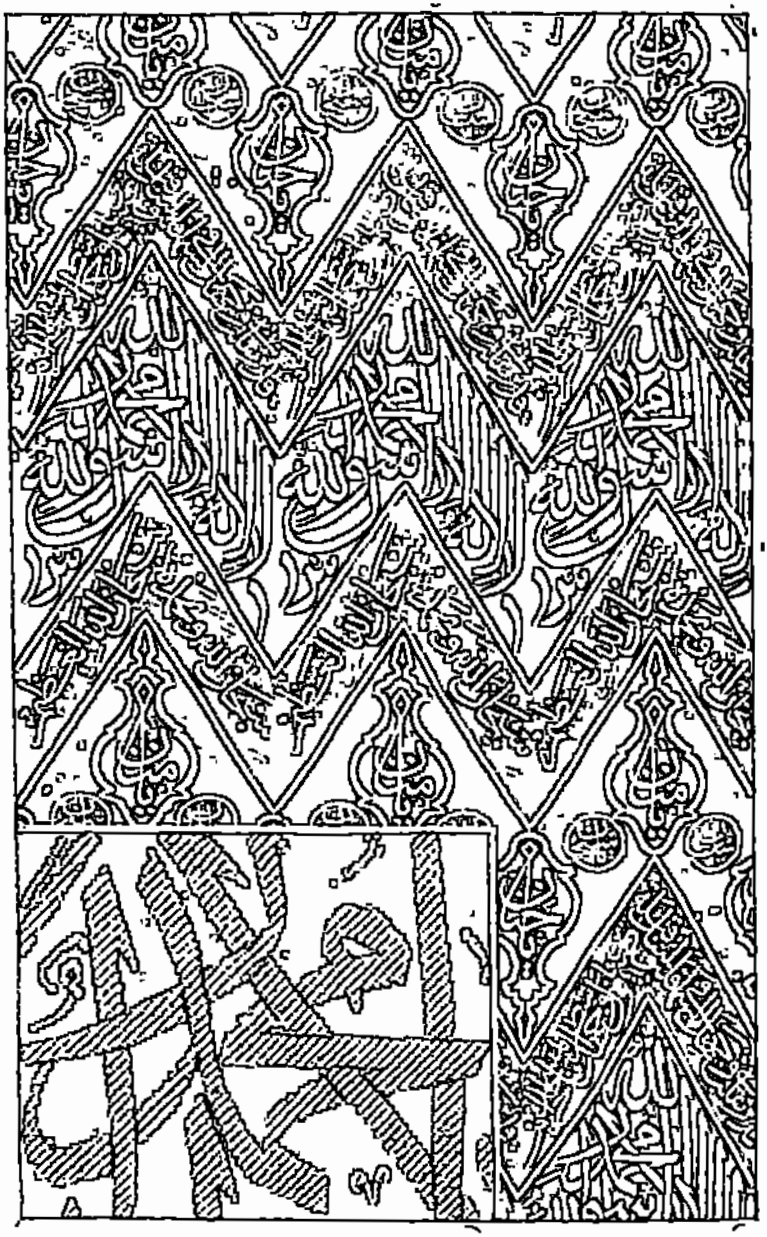

الرسم ١
منظر كوة الكعبة من الداخل

اخته او امه ويسرع بها في السير وعند ما يصل بها الى الحجر الاسود يرفعها ويضع رأسها في تجويف الحجر ، واذ ذاك تمسح وجهها وشعرها . ويقول لها : « حجي يا مره حجي » وتقبيل الحجر عندهم فريضة لازبة لا يتركونه ولو ماتوا دونه ومن كثرة زحام هؤلاء العربان على الحجر وإدخالهم الرؤوس في تجويفه حصل به خدش أصلح فيما بعد . ومات احد الحجاج اثناء الطواف من شدة الزحام . ومما سمعتهُ محاورة بين إثنتين من نساء العربان قالت إحداهما للكعبة : « يا ست ليلة [لعل تسميتها ليلة لأنها سوداء وكسوتها سوداء] ان كان جاتنا المطر في ديارنا وجانا الخير اجيب لك مكية سمن (قربة صغيرة) تدهني بها شوشتك » — لان العربان يزعمون ان الكعبة امرأة تدهن رأسها — فقالت الثانية : « حقيقة تجيبي لها ؟ » فقالت لها : « اسكتي أنا عمال أكذب عليها اذا جاتنا المطر نا اجيب » فانظر كيف بلغ أدب العربان في خطاب الرب حدًّا سيئًا وكيف بلغت من نفوسهم الاعتقادات الفاسدة . ما ذلك الا من فرط جهلهم بالدين فهل لاولئك من مرشدين .

وقال (ص : ٤٩) :

« ومن فكاهات الحجاج عند رمي الجمرات ان بعضهم كان يرمي الحصيات السبع دفعة واحدة ويخاطب إبليس بلفظة « يلعن دينك » . وبعضهم كان يرمي حصاة حصاة ويقول العبارة السابقة عقب كل واحدة ، او يقول « في عين دينك » . وبعض الحجاج لا يكتفي بالحصيات الصغيرة بل يأتي بأحجار كبيرة ويرمي بها الجمرة (العمود القائم) بل لا يرتاح له بال الا اذا هدم جزءًا من البناء ، ومنهم من يقف على البناء ويرمي ، ومنهم من يلصق به جسده ويرمي ! وقد كان من الضباط الذين معنا « اليوزباشي » عبد الوهاب حبيب افندي فلما جاء وقت رمي جمرة العقبة اخذ عساكر الحرس ورجموا إبليس (الجمرة) دفعة واحدة بهيئة هجوم على عدو وانتقام منهُ .

ولكن هذه الملح لم تحُلْ دون توسعه في ذكر « حكمة رمي الجمار » (ص: ١٣٦) وسائر شعائر الحج عند المسلمين

وانما اتينا على هذه التفاصيل ليتاح للقرّاء ان يتعرّفوا الى اسلوب المؤلف . وللمسلمين وحدهم بتّ الحكم في ملاحظاته ، وفي النظرات التي اودعها كتابه في القسم الديني (ص : ٥٧ — ١٤٢)

* * *

اليك كيفية روايته لغسل الكعبة وقد اشتركَ بها في حج ١٩٠١ (ص: ٤٠—٤١) :

« في يوم الاثنين ٥ ذي الحجة دُعيت مع امير الحج وأمين الصرة وبعض الموظفين لغسل الكعبة حسب المتاد سنويًا فلبينا الدعوة وذهبنا الى المسجد الحرام . وفي الساعة الاولى العربية حضر دولة الوالي وأمين الدفاتر (الدفتردار) واللواء (قومندان) الجند المكي وبعض العظماء من الحجاج ودخلنا الكعبة وصلينا في كل من جهاتها الاربع ركعتين ودعونا الله بما

احبنا ودعوت للخديو كما دعا له الامير والامين . ثم اخذنا جميعاً في غسل أرض الكعبة من الداخل بماء زمزم وكان ذلك بمنشات صغيرة صنعت من خوص النخيل ثم وزعت علينا خرق بيضاء مبلة بماء الورد والروائح العطرية وأخذنا نمسح بها جدر الكعبة ، وقد اشتد الزحام امام بابها لاخذ مياه الغسل للتبرك بها ، والمطوفون يأخذونها في دلاء ويضعونها في قوارير

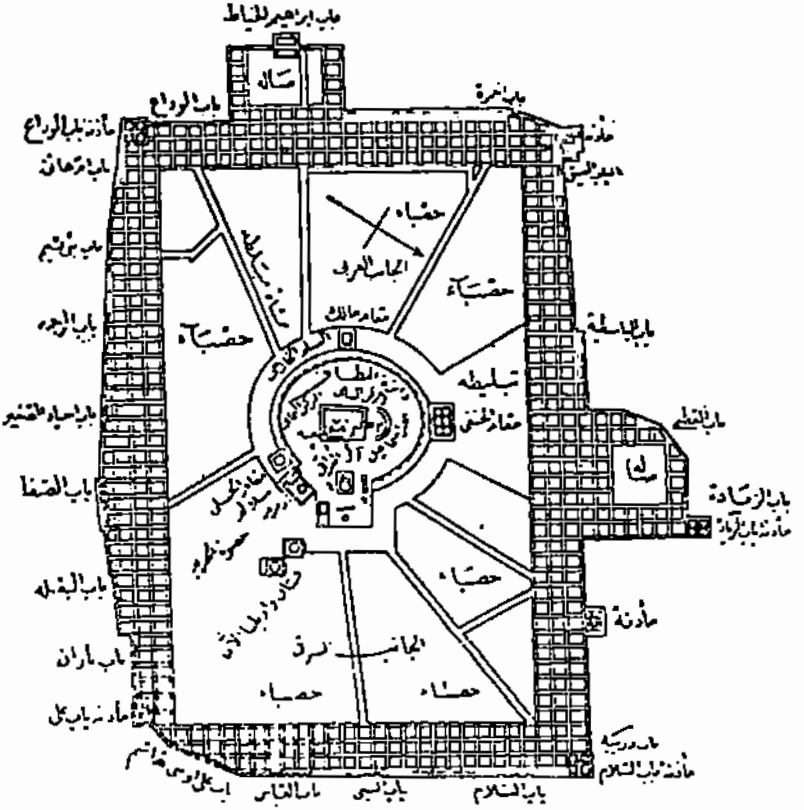

١ باب العمرة ٢ قبر اسماعيل ووالدته ٣ باب السلام او بني شيبة
٤ الحجر الاسود ٥ مقام ابراهيم ٦ منبر

الرسم ٢
رسم المسجد الحرام في مكة

يطوفون بها اتباعهم من الحجاج وكذلك يتخاطف الناس منشآت الغسل بل يتضاربون عليها وعلى الماء ، ولدى تزولي عن الكعبة وضعت ما معي من المنشات في منشفة كبيرة (بشكير) استحضرتها معي لغسل الكعبة بها ولاحفظها بعد تبركاً ، وقد زاحمني الحجاج وعصر بعضهم المنشفة لعله يجد بها قطرة ماء ومنهم من مسح بها وجهه ومنهم من مسها ومسح على عينه وجسمه . »

واليك ايضاً وصفهُ للحجر الاسود نسخناه بحرفه لدقته (ص : ٢٦٤):

« وفي الركن الجنوبي الشرقي للكعبة من الخارج الحجر الاسود الذي هو مبدأ الطواف ، ويرتفع عن الارض متراً ونصفاً ، والحجر اسود اللون ذو تجويف اشبه بطاس الشرب وقد حدث فيهِ الآن تشقق وعمل لهُ في سنة ١٢٩٠هـ (١٨٧٣) غطاء من الفضة ، في وسطه فتحة مستديرة قطرها ٢٧ سنتيمتراً ، اعني شبراً وثلثاً ، يرى منها الحجر ويُستلم »

كل يعرف مـا لجبل حِراء من الاهمية في حياة نبي المسلمين - لانه كان يختلي في جرده الموحش ، وفيه ، على ما جاء في السيرة ، زاره الملاك جبرائيل لاول مرة . وانك لتجدنَّ في الصفحة ٥٦٠ من الكتاب رسماً لغار حراء قلّما يقف المرء على امثاله . ورغم الذكريات المتعلقة بهِ ، قليلون هم الحجاج الذين يجهدون النفس في زيارته ، لما في هذه الزيارة من المشقات والمتاعب . اما المؤلف فوجد في نفسه من البأس ما حمله على زيارة غار حراء . ومن ثم وصفه ، واليك وصفه بحرفه لما فيه من فوائد جديدة (ص : ٥٨) :

«وقد صعدنا هذا الجبل في ٣٥ ق مع ان ارتفاعه حوالي ٣٠٠ متر ولكنه يكاد يكون عمودياً فلذا كان صعب المرتقى واضطررنا الى الاستراحة مرتين اثناء الصعود واغمي على بعض الضباط ولولا ما معنا من الماء الذي رششنا بهِ وجوههم لحصل ما لا تحمد عقباه ، ولذا يجمل بمن رام صعوده أن يستصحب بعض المياه خصوصاً في آونة الحرّ ، وقبل ان نصل الى قنة الجبل بثلاث دقائق وجدنا خزاناً نحت بالجبل لحفظ مياه المطر يبلغ طوله ٨ امتار في عرض ٦ وعمق ٤ ولهُ درج للوصول الى قاعه وكان خاوياً من الماء . »

ونصح المؤلف لزائري حراء ان يتقوا شر الاعراب الكامنين لسلب الحجّاج قال (ص : ٥٩) :

«وقد بلغني ان اعرابياً قتل حاجاً فلم يجد معه غير ريال واحد فقيل لهُ : « قتلته من اجل ريال ؟ » فقال وهو فرح : « الريال احسن منهُ »

واليك الآن وصف مكة (ص : ١٧٨) :

«مكة واقعة على ٢١° و ٢٨ ق عرضاً شمالياً ، وعلى ٣٧° و ٥٤ ق طولاً شرقي باريس ، وترتفع عن سطح البحر الأحمر بنحو ٣٧٩ متراً ، وهي عاصمة بلاد الحجاز ، وطولها من الشمال الى الجنوب ميلان ، وعرضها شرقاً من جبل ابي قبيس الى اسفل جبل قعيقعان من الغرب ميل واحد ، يقطع الماشي طولها في نحو نصف ساعة ، ومع كون عرضها دون طولها يقطع في زمن اكثر مما يقطع فيه الطول ، وذلك لوجود اماكن على تلال في كل من جانبيها . وهي ببطن وادٍ يحيط بهِ سور من الجبال الشامخة قد بنيت طيها الحصون المحكمة ، وليس بسورها الجبلي ثغرات إلا حيث مداخلها الاربع ، ففي الشمال الشرقي الطريق الى منىً ، وفي الجنوب

الطريق الى اليمن وفي الشمال الغربي الطريق الى وادي فاطمة ، وفي الشرق الطريق الى جدة »

واذا كان الشتاء مطيراً — وهذا من النادر في الحجاز — تسارعت المياه على سفوح جبال سراة المشرفة على مكة شرقاً ، الى بطحاء المدينة . فمن ذلك تفهم كيف كانت تلك المدينة منذ القدم معرضةً لخطر السيول في الشتاء[1] . واخبار هذه الكارثة تملأ التواريخ القديمة من امثال كتب الازرقي والفاسي وغيرهما . وكان رفعت باشا نفسه شاهداً عياناً لها فوصفها وقال (ص: ٢٠٠) :

«وفي يوم السبت ٢١ ذي الحجة من سنة ١٣٢٥ (٢٥ يناير سنة ١٩٠٨) في حجتي الرابعة نزل مطر شديد وجرى السيل من كل جهات مكة بشكل لم يسبق لهُ مثيل منذ ٣٣ سنة على ما بلغني ، وكان السيل اشبه بماء النيل المنحدر وكان عرضه وهو ينحدر من جبال جياد نحو ٥٠ متراً وسمعنا دوي صاعقة بجياد مثلت صوت جملة من المدافع الضخمة اطلقت في لحظة واحدة ، وقد ملأ الشوارع حتى كان عمقه في شارع وادي ابراهيم مترين تقريباً ، ولذلك دخل المسجد الحرام من ابوابه وانقطع المرور من الطرق الّا بالسباحة ، وكنت ترى الشقادف ورحال الابل سابحة في الماء وتسمع دوياً للماء كأنهُ امام القناطر الخيرية وقد فتحت عيونها وتجمد الناس وقد خرجوا من المسجد الحرام من باب الرحمة يستمدّون لاجتياز هذه المياه وقد كشفوا عن سوقهم ورفعوا ثيابهم الى ركبهم ودون ذلك واكثر .»

وقد نعت القرآن مكة (١٤ : ٤٠) فقال انها « وادٍ غير ذي زرع » وهذه الآية تنوه بان المملكة النباتية لم تكن ممثلةً فيها الا تمثيلاً سيئاً . وترى الوثنيين من قريش يعجزون نبي الاسلام بان يغرس لهم بساتين وينفجر لهم ينابيع كينابيع الشام . ومضى قرن على وفاته ولم تتغير الحالة عما كانت عليه . ولعل الحيقطان الشاعر صدق اذ قال في البلدة :

وليس بها مثنًا ولا متصيَّف ولا كَجُرانا ماؤها يتفجّرُ
ولا مرتع للدين او متقنّصٌ ولكنَّ تجرًا والتجارة مقفرُ[2]

على ان الزمان مضى ، واحتفرت قناة سميت عين زبيدة باسم امرأة هارون الرشيد (ص ٢١٢ وما بعدها) ومنها سقيت البساتين . ووصف المؤلف بستان الشريف عون الرفيق فقال (ص : ١٩٦) :

« والمزدوع من ارض البستان نحو الربع ، وفيهِ شجر الجوافة والجوز الهندي والبرتقال والليمون والنخيل والعنب والورد والبرسيم الحجازي والكرنب والكرات والباذنجان

١) راجع كتابنا « مكة قبيل الهجرة » (ص: ١٠٦ وما بعدها) .
٢) الجاحظ : ثلاث رسائل (ص : ٦١)

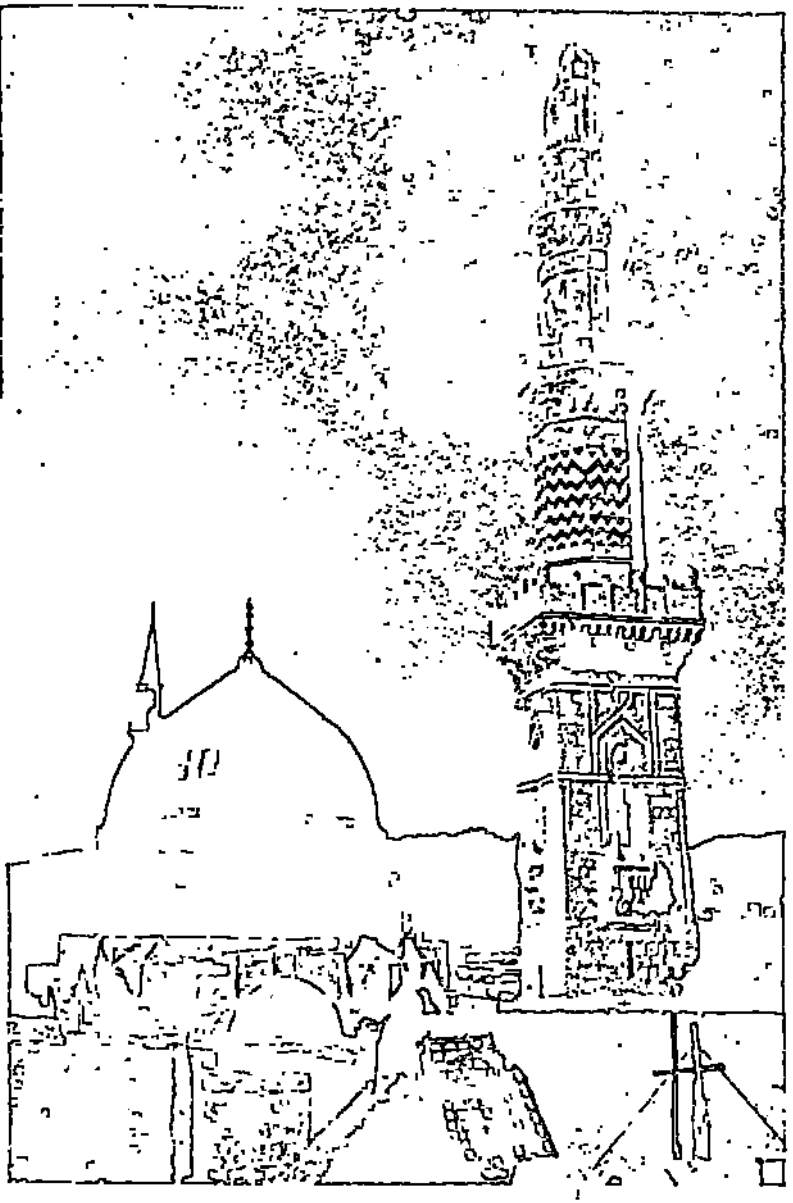

الرسم ٥

قبة النبي محمد ، وابي بكر ، بالمسجد النبوي بالمدينة

وقد اخذنا هذا الرسم ، هم ما تقدمه ، عن « مرآة الحرمين » باذن من المؤلف ، حضرة اللوا
ابراهيم رفعت باشا

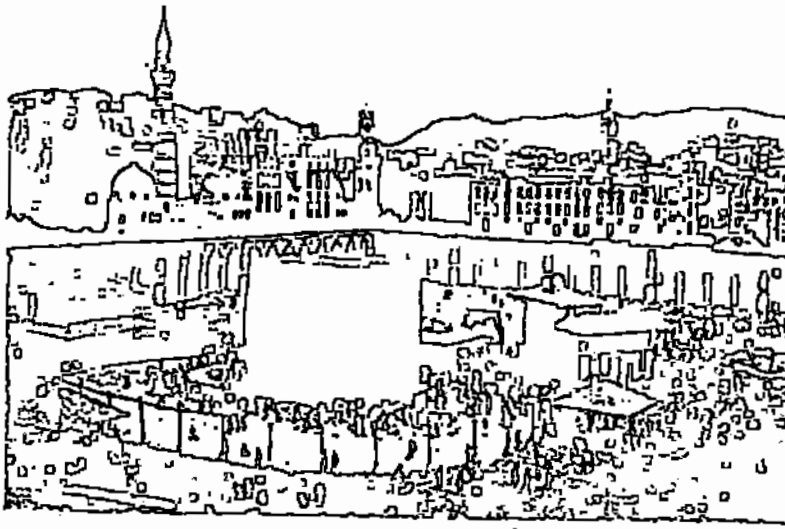

الرسم ٣
منظر الكعبة بالمسجد الحرام في مكة

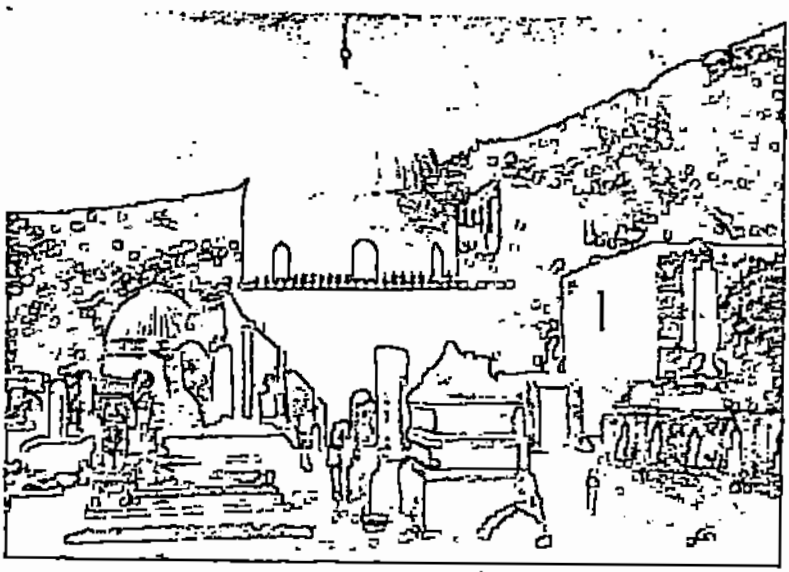

الرسم ٤
قبة السيدة خديجة بالمعلى (مكة)

والطاطم الى غير ذلك ، ولا يفوتنا ذكر ما فيه من شجر الكادي الذي يستخرج منهُ عطر الكادي ذو الرائحة الجميلة ، وشكل الشجرة كالصبارة الّا ان طولها يفوق المترين ولها جذوع كثيرة نابتة في الارض ، وورقها عريض اشبه بسعف النخل من جانبه العريض ولهُ شوك كثير .»

واذا انتهت فرائض الحج كثيرون من الحجاج الاجانب يستوطنون مكة . ذلك ما يزيد في اختلاط السكان ويبلبل لهجتهم . واليك في ذلك فوائد شائقة (ص : ٢٠٢) قال ناقلًا كلام البتانوني :

« والذي يؤسف لهُ ان هذا الخلط وصل الى لغتهم فتراهم يتكلمون في الاكثر بلغة يكثر فيها الحشو من كلمات عربية مشوّهة او فارسية او تركية وهم يشوّهون المضاف فيقولون في «هذا حقُّ فلان» مثلًا: «هذا حقّ فلان» مع ابدال القاف جيماً مصرية ، ومنهم من يمدّ الحرف المنوّن فيقول: « هذا حقون فلان » او يؤنث لفظه فيقول : « حقة فلان » ولا يحذفون النون من الفعل في صيغة الامر للجمع فيقولون: « هيّا صلون المغرب واركبون » بدل صلوا واركبوا . ويستعملون الترخيم في غير المنادى فيقولون «قم لِعِنا » اي قم لنتدنا . ويقولون في الإبل : « البِل» بكسر الباء وفي الجبل « البَل » بفتحها ويقولون كبتًا اي كملنا (خلصنا) ويقولون : « وصابتي » في واصبتي ، و«الّاسن» في اليمن ، وعمًا يكثر سماعه منهم قولهم : « دَحين » في هذا الحين و « ازهَم فلان » في ادم فلانًا ، ويعبرون عن الرجل بلفظ « زلَمة » ويجمعون الرجل على « اوادم » ويقولون « زكّنه » اي فكره او نبه ، و«قل كذاه» اي اعمل كذا ويقولون «ابيض» للاستحسان و« سَع»في اصنع او اتقن و«أتمصص» في اجلس و«فصّخ حذاك»اي اخلع نعالك ، ويقولون : «بشلح» للباذة ، و«شاية» للقفطان ، و« امرح » : أجر ، و« الوَدَن » للقدان من الارض ، و « الشادة » للكوفية ، و « زكن عليه » اي أكد عليه ، و « زل » بمعنى مر ، و « أندر » بمعنى أخرج ، و « الّا » بمعنى نعم .»

وقدر المؤلف (ص : ٢٠٣) عدد سكان مكة باكثر من ١٢٠,٠٠٠ نفس . وعدد المستخدمين بالمسجد الحرام زهاء ٧٠٠ ، وفيهم ٥٢ آغا (خصي) و ٢٠ مكتّاً ، و ١٨١ غسالًا للقناديل الخ (ص : ٢٦٠) واليك وصف الحفلة التي يقيمونها لخطبة الجمعة في المسجد الحرام (ص : ٢٥٤):

« والعادة الآن بل ومن قديم الزمان انهُ اذا اراد الخطيب ان يخطب للجمعة يقبل بين شخصين من الاغوات يتهادى بينهما بيد كل منهما راية ، ثم يعمد الى الحجر الاسود فيقبله ويدعو عنده ، ثم يقصد الى المنبر بين الاغوين وامامه شخص يضرب بالقرقعة — عود به جلد رقيق — في الهواء فيسمع من في داخل المسجد وخارجه صوتها الشديد ، ويقصد بذلك اعلام الناس بخروج الخطيب ، فاذا ما كان على باب المنبر ناوله شخص هنالك سيفًا وثبّت الرايتان بجانب المنبر ، فاذا ما رقي الدرجة الاولى ضربها سيفه ضربة مسمعة ، وكذلك يفعل في

الدرجة الثانية والثالثة ، فاذا ما وصل الى العليا فعل جا كذلك ثم يدعو بدعاء خفي ويسلم على الناس يميناً وشمالاً فيردّون عليه ، ثم يأخذ المؤذنون على ظهر زمزم في الاذان الثاني وبعد الفراغ منهُ يشرع في الخطبة .»

ولمَّا كان هذا الوصف شبيهاً بما تركه لنا احد معاصري صلاح الدين اعني به ابن جبير[1] فقد خالجنا السؤال: الم يقتبس المؤلف المصري شيئاً من المؤلف الاندلسي الذي سبقه ؟

رويْنا بعض مواضيع المؤلف بحرفها ، واخذنا عن كتابه الرسوم الواردة في هذا المقال شاكرين ، وحسبنا ان نحيل القرّاء على الكتاب فسوف يجدون فيهِ معدناً من التعليقات عن دولة الحجاز ، وخاصة على عهد بني عثمان ، وقد خبَّ المؤلف حجّاته الاربع في ذلك العهد[2] وسيجدون فيهِ ايضاً ان الاعراب لا يزالون من صميم ولد اسماعيل (تكوين ١٦ : ١٢) و « سرّاق الحجيج » كما نعتهم الحديث . فانهم في يومنا لا يزالون كاجدادهم ينظرون الى الحجّاج نظرة الصياد الى الطريدة . هذا ما اختبره المؤلف بنفسه . لانه لمَّا لم يكن يوفّق الى ملاينتهم بالاصفر الرنان ، كان يضطر الى اطلاق البندقيات والمدافع ليخترق طريق المحمل ، وعسير علينا ان نغالي اذا ما اطرأنا سياسته وحزمه في مثل تلك الظروف .

١) رحلة ابن جبير ، الطبعة الثانية (ص : ٩٥ – ٩٦)

٢) في الصفحة ١٤٥ السطر ٣ عُربت العبارة (Arabia Petraea) المعروفة من الاقدمين بهذه الكلمات : « بلاد العرب الحجرية » . فالتعريب مخالف للمعنى . نعم ان الكلمة (petraea) معناه الحقيقي حجرية ، لكنه مذهب هنا الى «بيترا» اي وادي موسى الحالية . وهذه عاصمة النبطيين ومنها اخذت شبه جزيرة سيناء اسمها . اما السموأل الشاعر اليهودي فكانت اقامته في تيماء لا في خيبر (ص : ٤٤٦)